ثمرات الصيام ف

لعل أهم ثمرات الصوم ايتاء القدرة على الحياة مع الحرمان في صورة ما.. كنت أرمق النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو يسأل أهل بيته في الصباح: أثم ما يفطر به؟ فيقال: لا! فينوي الصيام، ويستقبل يومه كأنه لم يحدث..

ويذهب فيلقى الوفد ببشاشة ويبت في القضايا، وليس في صفاء نفسه غيمة واحدة ! وينتظر بثقة تامة رزق ربه دونما ريبة، ولسان حاله: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرا».

قلتَ: لو جاءني افطاري دون شاي لسخت!! ولرفضت امضاء ورقة علي مكتبي، بَلْهَ كتابة مقال!!.

انها لعظمة نفسية جديرة بالاكبار أن يواجه المرء البأساء والضراء مكتمل الرشد، باسم الثغر، والأفراد والجماعات تقدر على ذلك لو شاءت!.

وأعتقد أن أسباب غلب العرب في الفتوح الأولى قلة الشهوات التي يخضعون لها، أو قلة العادات التي تعجز عن العمل ان لم تتوفر. يضع الواحد منهم تمرات في جيبه وينطلق الى الميدان، أما جنود فارس والروم فان العربات المشحونة بالأطعمة كانت وراءهم، والا توقفوا. . .

وقد اعتمد غاندي على هذا السلاح عندما حارب «بريطانيا» العظمى.. كان الانتاج البريطاني يعتمد على الاستهلاك الهندي.. وقرر غاندي أن ينتصر بتدريب قومه على الاستغناء نلبس الخيش ولا نلبس منسوجات «مانشيستر»، نأكل الطعام بدون الملح ما دامت الدولة تحتكره، نركب أرجلنا ولا نركب سياراتهم.

وقاد حركة المقاطعة رجل نصف عار جائع، يتنقل بين المدن والقرى مكتفيا بكوب من اللبن.

واستجابت الجماهير الكثيفة للرجل الزاهد، وشرعت تسير وراءه فاذا الانتاج الانجليزي يتوقف، والمصانع تتعطل، وألوف مؤلفة من العمال الانجليز يشكون البطالة. واضطرت الحكومة الى أن تطلب من «غاندي» المجيء الى لندن كي يتفاوض معها، أو يملي شروطه عليها!!.

وحياة أحمد شوقي وهو ذاهب الى لندن بقصيدته التي يقول فيها محذرا من ألاعيب الساسة:

وقل: هاتوا أفاعيكم أتى «الحاوي» من الهند. . . ان الانسان الذي يملك شهواته قوة خطيرة، والشعب الذي يملك شهواته قوة أخطر، فهل نعقل؟؟..

أحفظ للشيخ الكبير «محمد الخضر حسين» –شيخ الأزهر الأسبق– كلمة عظيمة:

«لست أنا الذي يهدّد، ان كوبا من اللبن يكفيني أربعا وعشرين ساعة»!.

ومن قبله قال الشيخ عبد المجيد سليم وقد حذروه من غضب جهات عالية:

«أيمنعني ذاك من التردد بين بيتي والمسجد؟ قالوا: لا.. قال: لا خطر اذن، ليس هناك ما يُخاف»..

من أركان العظمة أن يجعل الرجل مآربه من الدنيا في أضيق نطاق مستطاع. . . انه يعيي عدوه بذلك الاستعفاف أو الاستغناء.

وذاك نهج الشرف الذي خطه علي بن أبي طالب عندما قال: «استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج الى من شئت تكن أسيره».. وما يستقيم على هذا النهج الا امرؤ يحسن الصيام..

أعجبتني هذه الوصية لأبي عثمان النوري لابنه، وأثبتها الجاحظ، وليس لي في كتابتها الا فضل النقل:

«يا بني: كل مما يليك، واعلم أنه اذا كان في الطعام لقمة كريمة أو شيء مستطرف فانما ذلك للشيخ المعظم أو الصبي المدلل، ولست واحدا منهما. يا بني عوّد نفسك مجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش كالسباع، ولا تقضم كالبغال، ولا تلقم لقم الجمال، فان الله جعلك انسانا فلا تجعل نفسك بهيمة، واعلم أن الشبع داعية البشم، والبشم داعية السقم، والسقم داعية الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة، لأنه قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره. يا بني: والله ما أدى حق الركوع والسجود ممتلئ قط! ولا خضع لله ذو بطنة، والصوم مصحة والوجبات عيش الصالحين. يا بني: قد بلغت تسعين عاما ما نقص لي سن، ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت ذنين أنف، ولا سيلان عين، ولا سلس بول، وما لذلك علة الا التخفف من الزاد. فان كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وان كنت تحب الموت فتلك سبيل الموت، ولا أبعد الله غيرك»..

هذه وصية رجل لا يعرف عبادة الجسد التي تهاوى فيها أبناء هذا العصر، والتي جاء فيها قوله تعالى: «ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»، وقوله «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَّهُمْ».

وتجتاح الناس بين الحين والحين أزمات حادة تقشعر منها البلاد، ويجف الزرع والضرع، ما عساهم يفعلون؟ انهم يصبرون مرغمين أو يصومون كارهين، وملء أفئدتهم السخط والضيق.. وشريعة الصوم شيء فوق هذا، انها حرمان الواجد، ابتغاء ما عند الله. انها تحمل للمرء منه مندوحة –لو شاء– ولكنه يخرس صياح بطنه، ويرجئ اجابة رغبته، مدخرا صبره عند ربه، كيما يلقاه راحة ورضا في يوم عصيب... «ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ».

وربط القعب بأجر الآخرة هو ما عناه النبي –صلى الله عليه وسلم– في قوله: «من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»!..

ان كلمتي «ايمانا واحتسابا» تعنيان جهدا لا يستعجل أجره، ولا يطلب اليوم ثمنه، لأن باذله قرر حين بذله أن يجعله ضمن مدخراته عند ربه.. نازلا عن قوله «ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبا».

وسوف يجد الصائم مفطرين لا يعرفون لرمضان حرمة ولا لصيامه حكمة، اذا اشتهوا طعاما أكلوا، واذا شاقهم شراب كرعوا.. ماذا يجدون يوم اللقاء؟..

انهم يجدون أصحاب المدخرات في أفق آخر، مفعم بالنعمة والمتاع، ويحدثنا القرآن الكريم عمن أضاعوا مستقبلهم فيقول «وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُوا إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ× الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

انَ الصيام عبادة مضادة لتيار الحياة الآن، لأن الفلسفات المادية المسيطرة في الشرق والغرب، تعرف الأرض ولا تعرف السماء، تعرف الجسم ولا تعرف الروح، تعرف الدنيا ولا تعرف الآخرة.

ليكن للقوم ما أرادوا، ذلك مبلغهم من العلم!.. بيد أننا نحن المسلمين يجب أن نعرف ربنا، وأن نلزم صراطه، وأن نصوم له، وأن ندخر عنده!.. على أن هناك حقيقة مؤسفة هي أن الصوام قلة وان امتنع عن الطعام كثيرون

ومن المعلوم ان الصوم نموذج لعبادات الاسلام التي تتجلى فيه عقائده وأصوله.

ومنها الايمان بالله تعالى وكماله، والاقرار بالعبودية له يتحقق في هذا الشهر تحديدا في الامساك عن مفسدات الصوم سرا وعلانية، فالصائم يؤمن بربه ويراقبه حتى في دخيلة قلبه، ولو أمسك دون نية وقصد لما كان صائما، ولو نوى أنه مفطر نية قاطعة جازمة لكان مفسدا لصومه.

وهذا يربي المؤمن على مراقبة الله تعالى واستحضار مشاهدته للعبد في كل أحواله وتقلباته ومعاصيه وطاعاته، فيولد لديه اقبالا على الطاعة ونشاطا فيها، وانكفافا عن المعصية وحياء من مقارفتها وهو بمرأى ومسمع من ربه الذي يؤمن به ويخافه ويرجوه.

والايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم يتمثل في التزام الصوم الشرعي وفق ما جاء به النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم توقيتا وبدءا وانتهاء وأحكاما وآدابا.

والصوم كان فرضا على الأمم الكتابية السابقة، لكن لا يلزم من هذا أن يتفقوا معنا في تفصيلات الصيام ومفردات الأحكام وهذا يستتبع صدق الايمان به صلى الله عليه وسلم ومحبته واتباعه في سائر الأعمال والعبادات التي جاء بها، والحرص على السنن التي تجعله أقرب الى الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في شؤون حياته كافة.

والايمان بالغيب والآخرة والجزاء والثواب والعقاب ظاهر في ايثار الجوع والعطش والعناء الذي يثمر مرضاة الله وثوابه بالجنة والنعيم على التمتع بطيبات الحياة الدنيا مع انتظار الوعيد والعقوبة في الآخرة، وهذا يعدل الميزان لدى المسلم، فلا ينظر الى الأمور نظرة دنيوية بحتة في مصالحها ومفاسدها وحالاتها ومآلاتها، بل يوفق بين نظرة الدنيا ونظرة الآخرة، فيقدم مرضاة الله وطاعته ولو كان فيها فوات شيء من نعيمه العاجل، أو من راحته، أو من ماله، أو من جاهه، لأن حساباته ليست مادية خالصة.

النظام الخلقي يتجلى في الصبر الذي هو قرين الصوم وسميه حتى سمي الصوم صبرا، كما قال بعض المفسرين في قول الله تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة» قال: بالصوم والصلاة.

وسمي رمضان شهر الصبر، والصبر جزاؤه الجنة.

والصبر هو سيد أخلاق الاسلام، وبغير صبر لا يثبت المسلم أمام التحديات في دينه ودعوته، ولا يتحمل مشكلات الحياة وتبعاتها ومصائبها التي لا ينفك عنها بحال، فالفوز في الآخرة والسعادة في الدنيا ثمرتان من ثمار الصبر.

الصبر هو اكسير الحياة الذي يحول باذن ربه الصعاب الى لذائذ، والهموم الى أفراح، وكم أتمنى من الشباب الشاكين والشيوخ الباكين، والنسوة المتبرمات أن يكتبوا حكمة تتعلق بالصبر، ويجعلوها أمام نواظرهم، ليعلموا أن الصبر هو علاج كل داء، وحل كل مشكلة، وتذليل كل عقبة.

ويتجلى النظام الأخلاقي في الرقي بالنفس الى مدارج العبودية والتخفف من أوهاق الطين، وثقل الأرض، لتستشرف النفس آفاق الايمان وتستشعر شيئا من الأنس بالقرب من فاطرها وبارئها، وتسبح في ملكوتها، فالانسان انسان بروحه وشفافيتها قبل أن يكون انسانا بجسده. أقبل على النفس استكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم انسان.

ويتجلى في الايثار والاحسان ومعايشة آلام الآخرين ومقاسمتهم السراء والضراء، وذوق شيء مما يجدون، ولئن ذاقه الصائم تعبدا واختيارا، فلقد ذاقوه عجزا واضطرارا، ولئن عاناه وقتا محدودا، فلهو عندهم عناء ممدود.

ولهذا كان رمضان شهر الزكاة كما سماه عثمان رضي الله عنه، ونهايته زكاة الفطر التي يشارك المسلمون فيها الاحساس بفرحة العيد، فلا يدع أحدا منهم الا واساه، حتى فقراوهم يخرجون صدقة الفطر ان قدروا.

ويتجلى في الامساك بزمام النفس عن اندفاعاتها وحماقاتها مع صاحبها ومع الخلق، فالصائم مزموم بشعور دائم، يحمله على الكف عما لا يجمل ولايليق، وربما أدرك كثير من الصوام هذا المعنى حتى قبل أن يهل الشهر.

كما يحقق الصوم معنى الانتساب الأممي وتبعاته ومظاهره، فهو عبادة يشترك فيها المسلمون في كل مكان مما يعمق معنى الاخاء الديني، والولاء الشرعي، ويذكر